

الأساس الجغرافي والبشري

للدولة الموحدية

انطلقت الدولة الموحدية من جبال الأطلس الكبير الأوسط والغربي وقامت على أكتاف المجموعة البربرية المصمودية المستقرة في تلك الجبال وبزعامة أحد أبنائها من قبيلة هرغة. فما هي مميزات هذه الجبال؟ وما هي طبيعة الساكنة المصمودية المقيمة هناك وما هي بعض فروعها؟

1- جبال الأطلس الكبير: جبل درن

يقول ابن خلدون عنها:

"تبتدئ سطورها من ساحل البحر المحيط عند آسفي وما إليها، وتذهب في المشرق إلى غير نهاية. ويقال إنها تنتهي إلى قبلة برنيق من أرض برقة، وهي في الجانب مما يلي مراكش قد ركب بعضها بعضا متتالية على نسق من الصحراء إلى التل."

هكذا تصور أهل العصر الوسيط جبال الأطلس، ويهمنا نحن منها الأطلس الكبير وخاصة منه الجزآن الأوسط والغربي. وهذه جبال حديثة إذ يعود تكوينها إلى الزمن الجيولوجي الثالث بفعل الحركات التوائية التي عرفها. وتتميز بارتفاعها العالي حيث تتجاوز جنوب شرق مراكش 4000 م في قمة توبقال ومنها تتدرج الارتفاعات نحو الانخفاض في الاتجاهات الأربع. وتتميز بكثرة القمم الحادة والسفوح الشديدة الانحدار والأودية العميقة مما وفر لسكانها حصانة طبيعية متميزة ساعدتهم على الصمود ووفرت لهم الحماية في كل الأوقات.

وتتوفر هذه الجبال على موارد مائية مهمة ومراعي خصبة إذ "تفجرت فيها الأنهار، وجلل الأرض حمراء الشعراء، وتطابقت بينها ظلال الأدواح، وزكت فيها

مواد الزرع والضرع، وانفسحت مسارح الحيوان ومراتع الصيد، وطابت منابت الشجر". (ابن خلدون ج 6 ص.298). ويضيف الإدريسي "في كل هذا الجبل كل طريفة من الثمار وغرائب من الأشجار والماء يطرد منه وبوسطه وحوافيه يوجد النبات أبدا مخضرا" (المغرب وأرض السودان، ص.94).

وتوفرت للسكان وسائل الاستغلال فاجتهدوا وزرعوا وغرسوا كل غريبة من النبات والشجر "في هذا الجبل من الفواكه التين الكثير الكبير الطيب المتناهي في الطيب البالغ الحلاوة وفيه العنب المستطيل العسلي الذي لا يوجد في أكثره نوى (...). وفيه الجوز واللوز وأما السفرجل والرمان فيكون به منهما ما يباع الحمل منه بغيراط واحد وله من الإجاص والكمثرى والمشمش كل غريبة وكذلك الأترج والقصب الحلو حتى إن أهل هذا الجبل لا يبيعونه ولا يشترونه لكثرتهم وعندهم شجر الزيتون والخرنوب والمشتهى وسائر الفواكه. وبهذا الجبل شجر كبير يسمى بالبربرية أرقان" (المغرب وأرض السودان، ص.94-95). ويضاف إلى ذلك إنتاج الحبوب خاصة الشعير والذرة والبقول بمختلف أصنافها. ويمارس السكان أيضا تربية الماشية خاصة الأغنام والماعز والأبقار وبعض الدواب خاصة البغال التي تتحمل صعود السفوح الشديدة الانحدار.

وبهذا الانتاج المتنوع والوافر "استغنوا بقطرهم عن سائر أقطار العالم" (ابن خلدون، ص298)

2- المصامدة

وسكان الجبل من المصامدة وهم الاتحادية البربرية الثالثة الكبيرة إلى جانب زناتة وصنهاجة. وتضم مصمودة مجموعة كبيرة من القبائل منها: هرغة وهنتاتة وتينمل وغدميوة وكنفيسة ووريكة ورجراجة وهزميرة ودكالة وحاحة وأمادين وواوزكيت وبنو ماكر وهيلانة وغمارة وبرغواطة وسكساوة... (ابن خلدون، ص.299). ولما تقتصر مواطنهم على الجبال بل امتدت على السهول والهضاب الأطلنتية المغربية بين تامسنا وجبال الأطلس الكبير شرقا وجنوبا.

ومصمودة من المستقرين الذين " اتخذوا المعقل والحصون وشيدوا المباني والقصور " (ابن خلدون، ص298) بحيث كان في "أعلاه [جبلهم] جمل من قلاع وحصون تشف على نيف وسبعين حصنا" (المغرب وأرض السودان، ص.94) وتعتبر القصور وحدة السكن في بلاد المصامدة خاصة الجبلية. وتسير وفق نظام الجماعة باعتماد أعراف أو تشريعات إسلامية وتتدخل في كل مناحي الحياة كبيرها وصغيرها. وقد دخل المصامدة الإسلام مبكرا مع عقبة بن نافع وموسى بن نصير وتمسكوا به وكان لهم رجال مشهورون بالعلم والتصوف قبل الموحدين. وللمصامدة اعتزاز ونخوة ببلادهم ساعدهم عليها امتناع بلادهم وحصانتها. وكانت لهم مع لمتونة حروب وملاحم حتى قيل إن أحد أسباب اختيار موقع مدينة مراكش كان هو التحكم في جبال درن وضبط أهله، ولم يجد ذلك كثيرا فلجأ المرابطون إلى بناء سلسلة من الحصون على المخارج الرئيسية لجبال الأطلس، كما اعتمدوا سياسة صارمة في التعامل معهم خوفا منهم. وكان هذا أحد الأشياء التي حركتهم مع ابن تومرت للثورة وتأسيس الدولة الموحدية.

%